صورة صلاح الدين الأيوبي في كتابات ابن الأثير الجزري

أ. المنور عـواد
جامعة الشلف - الجزائر

لقد حلّ جميع المؤرخين الذين قاموا بدراسة حياة صلاح الدين مصدريين عربيين في المرتبة الأولى: المصدر الأول سيرة حياة صلاح الدين للقاضي بهاء الدين ابن شداد "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" (1)، والثاني هو كتاب التاريخ العام "الكامل" لعز الدين ابن الأثير وقد تمتع هذا الأخير، وهو زميل بهاء الدين في الانتماء إلى الموصل، طيلة قرون عديدة بشهرة كونه واحدا من أعظم مؤرخي العالم الإسلامي الوسيط، حتى أنه ليبدو من نافل القول تقريبا أن يصار إلى البحث في مؤهلاته وجدَارته بالاعتماد والقبول، لا سيما وأنه قد عاصر صلاح الدين وكان على اتصال شخصي بإدارة الموصل وبالتالي في وضع يسمح على الأقل بمعرفة الوقائع الخارجية (2).

مع أن ابن الأثير قد شاهد صلاح الدين دون ريب، في كل من الموصل وبلاد الشام على السواء، فلا يوجد أي دليل قاطع هناك على أنه اتصل بصلاح الدين اتصالا شخصيا البتة، غير أن تحامله على صلاح الدين ذائع الشهرة، لكن رواياته للأخبار قد حظيت بالقبول عموما، مع التماس الاعتذار عند بعض النقاد لواقعة التحامل فقد جرى اعتبارها صادرة عن مؤرخ معاصر للأحداث وحسن الإطلاع عليها (3)، لكن معرفة أسباب التحيز والتحامل ستكشف عن رؤية لا يمكن التسليم بها أو تصديقها كما وردت، خاصة إذا خالفت جمع المؤرخين المعاصرين والأقرب منهم إلى السلطان موقعا ومكانة. هذه النظرة لا يمكن تقريرها حين تقديم تفسيرات ودلائل تؤكد أن ابن الأثير قد انحاز بشكل لافت في بعض المواضع لسادته وأصحاب الفضل على عائلته آل زنكي، ورفض أساليب صلاح الدين في التعامل معهم، فيما لم يخف إعجابه بالسلطان وتقديره لجهوده الجهادية في مواضع أخرى، غير أنه في أكثر الأحوال لا يبدي عن

طريق انتقاء الروايات تحامله على صلاح الدين، وهذا لفرط ذكاء ابن الأثير في الانتقاء والاستدلال بالروايات التي تخدم نظرته وتوجهه.

ابن الأثير: من جزيرة ابن عمر إلى الموصل

عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري الشيباني بن الشيخ الأثير أبي الكرم [4] مولده بجزيرة ابن عمر [5]. كانت ولادته في سنة (1160/555)، حيث نشأ هو وأخواه مجد الدين، وضياء الدين الذي أصبح وزيرا للسلطان صلاح الدين، حيث تحول بهم أبوهم إلى الموصل فسمعوا بها واشتغلوا، وبرعوا وسادوا [6].

وبالموصل سمع ابن الأثير من الخطيب أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي، وأبي الفرج يحي بن حمود الثقفي، وغيرهم، ودخل بغداد رسولا من صاحب الموصل، فسمع بها من الفقيه أبي القاسم يعيش بن صدقة الشافعي الفرائي وغيره [7]، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ثم عاد إلى الموصل ولزم بيته منقطعا إلى العلم والتصنيف، كما كان حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرا بأنساب العرب، فصنف الكامل في التاريخ [8].

من مصنفاته إضافة إلى الكامل في التاريخ، كتاب معرفة الصحابة، جمع فيه بين كتاب ابن منده، وكتاب أبي نعيم الأصفهاني، وكتاب ابن عبد البر النمري القرطبي، وكتاب أبي موسى وزاد وأفاد وسماه " أسد الغابة في معرفة الصحابة "، ومن المؤلفات الأخرى، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (مطبوع في مجلد)، وتحف العجائب وطرف الغرائب (مفقود)، وكتاب الجهاد، والجامع الكبير في علم البيان، والمستقصى في التاريخ [9]. وتوفي عز الدين بن الأثير سنة (1232/630) وقد اختلف في تحديد يوم وفاته[10].

ابن الأثير والأسر الحاكمة: صلاح الدين والزنكيين

يبدو أن علاقة ابن الأثير بالسلطان الناصر صلاح الدين لم يكتب عنها الكثير، وقد تتبعنا بعض الإشارات الواردة في كتاب الكامل صرح فيها ابن الأثير بقربه من السلطان الناصر، ففي حوادث سنة (1186/582) قال: "كان قد بلغني من خبير بأحوال صلاح الدين...إلخ" [11]

فبلوغ ابن الأثير أخبار عن السلطان دليل على تتبعه لأحواله وما يجري معه، ويضيف في حوادث سنة (1187/583) في ملك صلاح الدين طبرية وقتله لفرسان الداوية [12] والإسبتارية [13] فيقول: " ولقد اجتزت بموضع بنحو سنة فرأيت الأرض ملأى من عظامهم يعني الفرنج" [14]، فاجتاز ابن الأثير هنا على مكان الوقعة، فكان بذلك متواجدا في بلاد داخلة تحت حكم صلاح الدين تصله فيها أخبار عنه لقرب البلاد 'طبرية' من موضع تواجد الناصر صلاح الدين، وأن أهلها يدينون له بالولاء والطاعة . وفي إشارة أخرى نجد هذا الأخير قد رافق السلطان الناصر صلاح الدين في بعض غزواته ضد الصليبيين، ويصرح بذلك في حوادث سنة (1188/584) أنه كان شخصيا مع السلطان حين نزل تحت حصن الأكراد الواقع داخل حدود كونتيه طرابلس الصليبية،: " فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي وكنت معه حينئذ فأقام يومين " [15]، وابن الأثير لا يصرح بعدها إن كان قد رافق السلطان في إغارته على الحصون القريبة من حصن الأكراد أم لا.

في حوادث سنة (1188/584) في ذكر فتح برزية عندما يصف القلعة ومدى حصانتها، بحيث يقول: "ورأيت أنا من رأس جبل عال ..." [16] ويواصل حديثه عن برزية فيقول: "ومن أعجب ما يحكى من السلامة أني رأيت رجلا من المسلمين على هذا الحصن...إلخ" [17] وهنا يبين كيف نجى هذا الرجل من الفرنج بأعجوبة، ومن هذا الكلام يتضح أن ابن الأثير كان حاضرا في حصار برزية إذ كلمة رأيت تثبت ذلك. وفي موضع آخر من حوادث الكامل، يذكر انضواءه في عسكر صلاح الدين: " وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة" [18]، وفي حوادث سنة (1146/541) عند ذكر قتل عماد الدين زنكي قال: " حدثني والدي عن بعض خواصه قال: " دخلت إليه في الحال وهو حي عند طعنه، ... ثم فاضت نفسه لوقته رحمه الله " [19].

فهنا نجد أن والد المؤرخ ابن الأثير، كان مقربا من خاصة عماد الدين زنكي، لتحديث ابنه عنهم، ولكونه من أعيان بلدة جزيرة ابن عمر، ويضيف ابن الأثير حديثا آخر عن تولي أخيه قرية في

الموصل من قبل أمير من أمراء السلطان صلاح الدين في حوادث سنة (1190/586) فيقول: "ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية، وكان أخي يتولاها"[20].

كانت الموصل تحت إمرة الزنكيين وكان مجد الدين أخو ابن الأثير عز الدين مقرب من الأسرة الزنكية وشارك في إدارة شؤون الموصل، وفي أحداث السنة الأخيرة لحكم صلاح الدين (1193/589) تظهر فيها جليا علاقة آل ابن الأثير بالزنكيين، وذلك في بيان علاقة صاحب الموصل عزّ الدين زنكي بمجد الدين ابن الأثير حيث جاء في الكامل من أحداث هذه السنة أن عزّ الدين جمع أهل الرأي من أصحابه فاستشارهم فيما يفعل " فسكتوا، فقال له أحدهم وهو أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك، أنا أرى أنك تخرج مسرعا فيمن خف من أصحابك ونتقدم إلى الباقين باللحاق بك" [21]، إذ أشار مجد الدين على عز الدين بالخروج إلى بلاد العادل وأخذها منه.

أما بالنسبة لعز الدين بن الأثير، فيذكر في مقدمة الكامل أن السبب الذي دعاه لإكمال تاريخه بعدما أعرض عنه، بروز السلطان الزنكي بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي، صاحب الموصل (ت1258/657) فيقول: " وحينها شرعت في إتمامه" [22]، وفي هذا المقام يثني ابن الأثير على هذا الأمير ثناء كبيرا بحكم قربه من البلاط الزنكي بالموصل غير أنه لم يشارك فيه، كما أفرد مؤلفا حول الدولة الزنكية سماه" التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" وهو في تاريخ الدول، ويقصد بالدولة الأتابكية الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل سنة (1127/521).

الكامل في التاريخ: تاريخ عالمي بالمنظور الكلاسيكي

يعتبر الكامل في التاريخ تاريخ عالمي بالمنظور الكلاسيكي إذ يعد من أهم المصادر التاريخية عند المؤرخين المسلمين بما يعرف في العصر الوسيط لشموليته تاريخ العالم الإسلامي، من أقصى بلاد الهند ونواحي الصين شرقا حتى أقصى بلاد المغرب والأندلس غربا، وتناوله لأخبار الروم والفرنج الأوروبيين، وأخبار الكرج والبلغار والصقالبة، والأرمن وغيرهم من الأمم، وتغطيته لفترة طويلة من عصر حروب الإفرنج ضد المسلمين، وهي المرحلة الحافلة بالأحداث الخطيرة، والتي

تعرضت فيها بلاد الشام ومصر لخطر الإرهاب المسيحي، ومرحلة الجهاد وتحرير الرها، وبيت المقدس، وبهذا نصبح أكثر ثقة وتثبتا بما يرويه ابن الأثير عن هذه المنطقة في تلك الحقبة، فهو الأقرب إليها زمانا ومكانا [23] .

ابتدأ الإخباري ابن الأثير كتابه بأول الزمان وأنهاه بعام (1230/628)، سار فيه صاحبه على طريقة الحوليات، مع ذكر جميع تفاصيل الأحداث التي تقع يوما بيوم، وشهرا بشهر، وسنة بعد أخرى، واستخلص بما وصله من مصادر تاريخية، وتخيّر منها ما هو أقرب إلى الصدق لكلّ حادثة، ثم أعاد صياغتها بأسلوبه الخاص [24]، ويعاب عليه أنه لم يذكر مصادره الأصلية التي أصبح البحث عنها من أشق الأمور وأعزها منالا[25]، ويبدو أنه كان متعمدا في تضليل قرائه بدليل قوله في هذا الصدد" ثم ذكر أصحاب التواريخ" و"حكى أن بعض الحكماء بالأنساب والتواريخ" وكان في مقدوره أن يذكر أسماء هؤلاء جميعا، وأسماء تواريخهم التي أشاروا إليها، على أن ابن الأثير أحسن الإجادة في موازنة التاريخ لأقاليم العالم الإسلامي ومعادلتها [26].

يولي ابن الأثير ابتداء من الجزء التاسع أهمية خاصة لما يكتبه، نظرا لأنه يؤرخ لأحداث قريبة العهد من زمنه سمع بها، وشارك في بعضها، وعالج في هذه الفترة الممتدة من سنة (1058/450) ما وقع من صدام بين ما عرف فيما بعد بالغرب المسيحي، والعالم الإسلامي[27] والذي اصطلح عليه باسم الحروب الصليبية (Les croisades) في الدراسات الغربية.

تجلت مواهب ابن الأثير في طريقة عرضه للحقائق، إذ حذف التفاصيل التي لا تدعو الحاجة إليها، وأمعن في فحص المصادر واختار من النصوص ما يناسب الحقائق في كل خلاصة لكل ما وقع من الأحداث في السنة [28]، كما عمد إلى إسقاطه للروايات المتكررة التي حشدها الطبري في تاريخه ونقده لها والأخذ بصحيحها، وأظهر بذلك حسه التاريخي الواضح والمتفوق مما عداه من العلوم والفنون التي شارك فيها[29].

أما في بعض الحوادث النادرة يذكر بصراحة أنه يستخدم أكثر من مصدر واحد، والكامل غني بالمعلومات والشهادات الهامة حول سيطرة الإفرنج على بلاد الشام، وبهذا يكون عملا عظيما، ومن عمدة كتب التواريخ الشمولية المختصرة على المنهج الحولي [30].

اعتمد ابن الأثير في تأليف كتابه على مصنفات منها تاريخ الرسل والملوك للطبري (ت 922/310)، وغالبا ما يشير إليه بقوله " قال " دون ذكر اسمه وهو يعنيه، كما اعتمد على مصادر أخرى خاصّة حول أيام العرب في الجاهلية والتي لم يتحدث الطبري إلا عن بعضها، منها ابن اسحق (ت 768/151) وكتب هشام الكلبي (ت 819/204) والواقدي (ت 822/207)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 824/209)، وفي فترة ما بعد الطبري اعتمد على أمثال: أبي زكرياء الأزدي الموصلي صاحب تاريخ الموصل(ت 945/334)، وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم (ت 1030/421)، والوزير أبي شجاع صاحب ذيل تجارب الأمم (ت 1095/488)، وثابت بن سنان بن قرة صاحب التاريخ (ت 975/365)، وابن منده الأصبهاني صاحب تاريخ أصبهان (ت 1077/470)، وابن الصابي صاحب التاريخ (ت 1087/480)، وابن القلانسي صاحب ذيل تاريخ دمشق (ت 1160/555)، وابن السمعاني صاحب ذيل تاريخ بغداد ومرو (ت 1167/563)، والقاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي (ت 1199/596) في مذكراته ورسائله، والعماد الأصفهاني (ت 1200/597) في كتاب البرق الشامي[31]، حيث يقول في حوادث سنة (1175/571) [32]، وقد ذكر العماد في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية ويورد بعدها القول، ويضيف أيضا في اعتماده على كتاب العماد في حوادث سنة (1190/586) فيقول ذكر العماد في كتابه البرق الشامي [33]، ثم يورد القول، وابن عساكر (ت 1176/572)، وابن منقذ (ت 1188/584)، وابن الجوزي (ت 1200/597)، واعتمد أيضا على كثير من كتب الأدباء والمحدثين وغيرهم ككتب المبرد، ودمية القصر للباخرزي، ومشارب التجارب للبيهقي، وصحيح البخاري...وغيرها [34].

ويقول: في هذا الشأن أيضا أنه لم ينقل إلا عن الكتب المشهورة، بالإضافة إلى الروايات الشفهية عن حوادث كانت قريبة منه نقلها عن بعض أصدقائه وخلاّنه فيقول في حوادث سنة (1168/564) في ذكر ملك صلاح الدين مصر: "حكى لي بعض أصدقائنا ممن كان قريبا إليه خصيصا به"[35]، وفي السنة التي بعدها (1169/565) في ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها يقول: "حدثني والدي رحمه الله "[36]، ويأتي بالحديث بعد ذلك، أو "حكى هذا بعض فضلاء الأكراد"، و" حكى أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ، أو " حكى لي بعض من كان يلازمه أي يلازم الملك "القاهر" أحد ملوك الموصل والزنكيين، أو حدثني بعض الأسرى...إلخ [37].

كما أنه اعتمد على المتخصصين للموازنة بين أقاليم العالم الإسلامي، فاعتمد على الهمذاني وابن حمدون، وابن الجوزي في تاريخ العراق، وعلى عماد الدين الكاتب وزبدة التواريخ للحسيني في تاريخ فارس، وعلى ابن شداد الصنهاجي في تاريخ المغرب، وعلى ابن عساكر في التاريخ السوري [38]، وبخصوص الفترة التي عاصرها وما تعلق بأخبار صلاح الدين فإن مصدره الرئيسي الذي لم يصرح بالأخذ عنه إلا في موضعين، وعمل على صياغة الروايات صياغة أخرى هما الأثران اللذان كرسهما العماد الأصفهاني لحياة صلاح الدين " البرق الشامي" و" الفتح القسي في الفتح القدسي" [39].

انتهج ابن الأثير منهجا في روايته للأحداث وبينه في مقدمة كتابه حين يقول: " وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها "[40]، أما الحوادث الصغيرة فقد أفرد لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة، وإذا ذكر من ملك فإنه يذكر جميع حاله منذ ابتداء أمره، وذكر في آخر كل سنة من توفي من مشاهير العلماء، والأعيان والفضلاء[41] وقسم تاريخه (إلى حقب) أو فترات لكل منها الطابع المميز، يفصل بينها وبين الفترة السابقة عليها حادثة تعتبر نهاية لعصر سابق، وبداية لعصر جديد، رغم وجود خيط التواصل، عبر مسار الحركة التاريخية، الذي يخترق جدار الحقب التاريخية مجتمعة [42].

الحضـور القـوي لصـلاح الديـن في الكامـل

ذكر ابن الأثير صلاح الدين ابتداء من سنة (1166/562) إلى غاية سنة (1193/589) فجاء كل هذا في (580) صفحة من المجلد التاسع و(104) صفحة من المجلد العاشر. أي (189) صفحة من المجلدين من مجموع (271) صفحة كتبت حول هذه الفترة، والباقي من مجموع (189) صفحة هو(28) صفحة جاء فيها ذكر أحداث عن مناطق غير الشام ومصر، كالهند والأندلس والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية لأن ابن الأثير كتب كتابه على المنهج الحولي الذي يذكر فيه الحوادث التي جرت في نفس السنة لا يربطها إلى بعضها البعض سوى عقد الزمن، إضافة إلى تخصيص الفترة التي كان فيها شاهد عيان بمادة أكثر من مثيلاتها.

تعتبر سنة (1166/562) أول سنة جاء فيها ذكر صلاح الدين في إطار المواجهة التي جرت بين عمه أسد الدين شيركوه، والمصريين وحلفائهم الفرنج واستنابة صلاح الدين بالإسكندرية [43]، أما السنة التي تليها وهي سنة (1167/563) فقد أهمل فيها ذكر صلاح الدين، كما يمكن اعتبار الفترة التي تمتد من سنة (1166/562) إلى سنة (1173/569) فترة لم تغط فيها حياة صلاح الدين وما جرى معه بالقدر الكافي، إذ أن كل سنة من هذه السنوات أفرد فيها لصلاح الدين من عنوان إلى أربعة عناوين جاء فيها ذكره أحيانا تلميحا له وأحيانا أخرى كشخصية رئيسية في السنة، وعلى الرغم من أن سنة (1171/567) وهي السنة الحافلة التي جاء فيها ذكر أهم حدث جرى مع صلاح الدين ومع الأمة الإسلامية أجمع، وهو قطع الخطبة للفاطميين، إلا أن ابن الأثير لم يأت عليها بالتفصيل الذي يوفي بأهمية الحدث، وخص صلاح الدين في هذه الفترة بـ30 صفحة من مجموع 73 صفحة والباقي 43 صفحة ضمّنها حوادث جرت في هذه الفترة في مناطق مختلفة.

وابتداءا من سنة (1174/570) يبدأ التركيز على شخصية صلاح الدين حيث جاء في هذه السنة ثمانية عناوين كلها عنه وفيما جرى معه في بلاد مصر والشام، وبالنسبة للسنوات التي بعدها إلى غاية سنة (1186/582) نجد أن صلاح الدين قد حظي فيها بجزء هام من السنة خاصة، ومن كتاب الكامل بشكل عام، وورد صلاح الدين في هذه السنوات الإحدى عشر

كشخصية أساسية لأهمية الأحداث التي وقعت معه في ذلك الزمن وعدد صفحات هذه الفترة يقدر بـ71صفحة من مجموع 97 صفحة والباقي 26 صفحة هي أحداث متنوعة لمناطق مختلفة

وفيما يخص السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين ابتداءا من سنة (1187/583) إلى سنة (1192/588) نجد أنها فترة حافلة بالأحداث (مرحلة الجهاد الأعظم) المتعلقة به والتي كادت أن تأتي على مجموع أحداث السنين اللهم إلا بعض الحوادث الصغار التي خرجت عن هذا الإطار، ففي سنة (1187/583) مثلا ذكر صلاح الدين تحت عشرين عنوانا وسبعة عشر عنوانا بالنسبة للسنة التي بعدها، وتليها كذلك عناوين كثيرة في السنوات الباقية جلها على صلاح الدين، وهذا نظرا لأهمية ما كان مع المسلمين والفرنج، واسترجاع بيت المقدس وحصر تواجد الفرنج في الساحل الشامي، ومجموع صفحات هذه الفترة 91 صفحة من مجموع 105 صفحة والباقي 14 صفحة فيها حوادث صغيرة لجهات مختلفة جرت في السنة، وذلك تماشيا مع المنهج الحولي، ولم ندخل السنة الأخيرة التي توفي فيها صلاح الدين (1193/589) لقلة ما فيها من أمر يتعلق به إذ ذكر فيها وفاته وشيئ من سيرته، ومن حكم من بعده وما حدث معه.

هذه ثلاث فترات حول صلاح الدين وردت بطرق مختلفة من حيث الكتابة عنها، فالأولى كانت أقل تغطية لحياته وأعماله وجهاده، أما الثانية فمركزة بعض الشيئ في أحداثها عن صلاح الدين، وأخيرا الفترة الثالثة وهي الفترة الأكثر تغطية وتركيزا، إذ أن جل الحوادث يكاد يكون موضوعها حول حروب صلاح الدين يوسف بن أيوب.

الجهاد والطموحات السياسيّة

أولى ابن الأثير لمواجهات صلاح الدين مع الأمراء المسلمين بعد انتقاله إلى الشام إثر وفاة نور الدين محمود أهمية واسعة إذ خلا الجو لصلاح الدين في مصر فعمل على تثبيت قدمه فيها، وقضى على كل المناوئين من الفاطميين[44] وغيرهم ممن أرادوا إزاحته عن ملكه، ولما تم له ذلك تطلع إلى بلاد الشام[45] التي كانت تحت حكم ابن السلطان نور الدين، الملك الصالح إسماعيل، وكان صغيرا فاستبد جماعة من الأمراء بمقاليد الحكم، فتدخل صلاح الدين في ذلك مبيّنا أنه الأقوى والأحق برعاية الملك الصالح من غيره، وكانت هذه حجج صلاح الدين التي استعملها

في امتلاك كثير من بلاد الشام، وصرّح في أكثر من موضع، أنه خادم الملك الصالح وتحت إمرته، ففي سنة (1174/570) امتلك صلاح الدين دمشق، وحمص، وحماة، وبعلبك، وضم قلعة بعرين، وحاصر حلب في هذه السنة وفي التي بعدها [46].

يواصل ابن الأثير في ذكر الحروب التي جرت بين صلاح الدين والحكام المسلمين إلى غاية سنة (1186/582)، أما في سنتي (572 – 573/1176–1177) فلم يأت فيها ذكر لحروب جرت بين الطرفين

في سنة (1179/575) جاء فيها ذكر للحرب التي وقعت بين صلاح الدين وقلج أرسلان، وقصد بعدها صلاح الدين ابن ليون الأرمني الذي غدر ببعض التركمان، وامتلك ديار الجزيرة سنة (1182/578) وحاصر الموصل وآمد في سنة (1183/579)، وضمّ بعض الحصون في الشام، وملك حلب [47]، وحاصر الموصل مرة أخرى ثم جرى الصلح سنة (1185/581)، أما في سنة (1186/582) فلم يبق صراع ذو أهمية بالغة بين صلاح الدين والأمراء المسلمين لتحكمه في أكثر أجزاء بلاد الشام.

أما فيما يتعلق بجهاد صلاح الدين للفرنج، فيبدأ ابن الأثير التأريخ له من سنة (1170/566) لما غزى صلاح الدين مناطق تواجد الفرنج، أيام نور الدين محمود، وكذلك ما فعله من حصار الكرك والشوبك في كل من سنة (567– 568/1171–1172) ثم إلى سنة (1174/570)، السنة التي ذكر فيها انهزام أسطول صقلية من أهل الإسكندرية، ويبدأ غاراته على الفرنج من بلاد الشام سنة (1182/578) لما غزا الكرك في سنة (1184/580)، وابتداء من سنة (1187/583) إلى غاية سنة (1192/588) نجد أن معظم ما قيل في صلاح الدين كان حول جهاده للفرنج من فتح بيت المقدس إلى ملكه يافا، ثم الهدنة بينه وبين الفرنج، أما السنة الأخيرة (1193/589) ففيها ذكر وفاته.

لقد ركز ابن الأثير كثيرا على جهاد صلاح الدين للفرنج، فذكر ذلك منذ أيام نور الدين، وبعده لما استقل صلاح الدين بمصر، ثم من بلاد الشام بعد امتلاك أكثرها، وهي المرحلة التي

جرت فيها أكبر المواجهات بين صلاح الدين والفرنج، كما جاء وصف الوقعات دقيقا، وذلك لقرب ابن الأثير من مواقع مجريات الأحداث.

لقيت علاقات صلاح الدين بأصحاب الموصل اهتماما بالغا من ابن الأثير فلا يكاد يذكر حادثة تعلقت بسيف الدين، وعز الدين صاحبي الموصل، إلا ويفرد لها قدرا معتبرا من مؤلفه للحادثة الواحدة وبدقة متناهية، وإذا نظرنا إلى طبيعة العلاقات نجدها عسكرية محضة في مواجهة بينهم بمبادرة من صلاح الدين في امتلاك الموصل وضمها إلى مجموعة ما كان تحت يده من بلاد الشام، وعلى الرغم من أن المواجهة لم تكن كثيرة، لم تأخذ من الكامل حيزا كبيرا إلا أن اهتمام ابن الأثير بها بدا جليا.

ففي ذكر حصار سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار، وسبب ذلك أن صلاح الدين كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه الأكبر، فحمله الطمع على الامتناع، وهزم جيش الموصل وحلب ضد صلاح الدين الذي قام بقطع الخطبة للملك الصالح [48]. الهزيمة الأخرى لصاحب الموصل كانت سنة (1175/571) لما واجه صلاح الدين فهرب ودخل إلى الموصل وهو لا يصدق أنه ينجو.

قام صلاح الدين بعد ملكه نصيبين بحصار الموصل لهوى في الأموال التي بذلها له ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، حسب رواية ابن الأثير لكنه فكّ عنها الحصار لعجزه عن امتلاكها[49].

حوصرت الموصل للمرة الثانية سنة (1185/581) من طرف صلاح الدين، ثم سار عنها بسبب وفاة شاه أرمن صاحب خلاط، فسار إلى ميافارقين وتسلم خلاط ثم ميافارقين، ليعود بعدها إلى الموصل، فمرض وهو يحاصرها فجرت الرسل في الصلح، فتم ذلك بين الفريقين [50].

بخصوص المفاوضات التي جرت في دمشق بين رسل دار الخلافة، ورسل الموصل، وبين صلاح الدين بحيث لعب فيها عماد الدين الكاتب دورا رئيسيا، والقاضي بهاء الدين ابن شداد الذي كان عضوا في وفد الموصل، لكن ابن الأثير استبدل النقطة الحقيقية للخلاف بمعادلة

مختلفة كل الاختلاف لكي يتسنى له إبراز صلاح الدين وكأنه على عداء راسخ لأي تسوية للخلافات مع الموصل [51].

في أثناء حصار عز الدين صاحب الموصل للجزيرة، وكان ذلك باءذن صلاح الدين لكن عز الدين اعتبرها مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد، وأرسل إليه يقول: أريد خطك بذلك ومنشورا منك بالجزيرة، فترددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة (1190/586) واستقرت القاعدة بين عز الدين، وسنجر شاه على يد رسول صلاح الدين، في أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة، ولسنجر شاه نصفها الآخر، وبعد وفاة صلاح الدين ساءت العلاقة بين عز الدين صاحب الموصل، والملك العادل، لما عزم عزّ الدين على السير إلى بلاد العادل وأخذها منه [52].

وهذه جملة الأحداث المتعلقة بعلاقات صلاح الدين بأصحاب الموصل في كتاب الكامل خلاصتها المواجهات العسكرية والعداوة بينهم، وبعد صلح (1185/581) أصبحت عساكر الموصل رهن إشارة صلاح الدين لجهاد الفرنج.

يرى ابن الأثير في مسير صلاح الدين إلى مصر فيه سعادته وملكه عندما علق على رفضه المسير رفقة عمه إلى مصر" فملكني الله ما لم أكن أطمع في بعضه " ويعتقد ابن الأثير هنا: أن صلاح الدين لو كان يعلم ما يحصل معه من استوزاره على مصر لما كان منه كره في الذهاب إليها رفقة عمه [53]، واتهم ابن الأثير صلاح الدين بإقامة دولته على القهر والقتل لذا حرمه الله ملك أعقابه من بعده، ونقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب [54].

فصّل ابن الأثير في الحملة التي قادها نور الدين وصلاح الدين كل من جهته ضد حصني الشوبك والكرك، وأرجع تجنب صلاح الدين لقاء نور الدين خوفا على منصبه، واعتذر صلاح الدين بمحاولة بعض المصريين القيام بحركة تمرد عند حملته على الشوبك، وفي الحملة على حصن الكرك اعتذر بمرض والده الذي كان يخلفه في تسيير شؤون مصر وخوفه من أن تخرج عن طاعته بوفاته. لم تقنع هذه الأعذار ابن الأثير الذي نقل استعداد صلاح الدين وأهله لقتال نور الدين، واتفاقهم على امتلاك بلاد النوبة ليحتموا بها إذا ما أخرجهم نور الدين من مصر [55].

يرى ابن الأثير أن صلاح الدين أخفق في التعاون مع نور الدين على حصار الكرك، فيما تذهب رواية العماد الكاتب التي تؤيّدها بنود تقرير رسمي عن العمليات رفعه صلاح الدين إلى نور الدين، أن الغرض من حملة صلاح الدين كان لطرد البدو الذين كانوا يعملون كأدّلاء في خدمة الفرنجة بالكرك، وبالتالي لجعل الاتصالات بين مصر والشام مأمونة أكثر. إن هذا القول يؤكّده أيضا غليوم الصوري [56] تأييدا تاما [57]، وهذا تفسير من تفسيرات ابن الأثير التي عمد فيها إلى قلب الحقيقة بغرض تشويه صورة صلاح الدين، وفي موضع آخر يقول ابن الأثير أن صلاح الدين كان يؤثر بقاء الفرنج في الطريق بين مصر والشام ليمتنع بهم على نور الدين.

قاد صلاح الدين حملة ضد مدن الشام بعد أن جعل من نفسه الأحق برعاية الملك الصالح، وبسبب الهدنة التي عقدها صاحب دمشق ابن المقدم مع الفرنج، وكانت في نيّة صلاح الدين حسب تفسير ابن الأثير أن يصير له طريقا إلى الشام ليمتلك البلاد [58].

عند تسليم دمشق لصلاح الدين من طرف ابن المقدم لامه ابن الأثير قائلا: " ومن أشبه أباه فما ظلم " لأن أباه كان قد سلم سنجار سنة (1149/544)، لأن ابن الأثير كان لا يريد لصلاح الدين أخذ دمشق [59].

يصرح ابن الأثير لأوّل مرّة بنص للعماد الكاتب ويقول أنه قصد تعظيم أمر صاحبه (صلاح الدين) [60] عندما قال أنه هزم عسكر الموصل المتكون من عشرين ألف بستة آلاف فارس[61]. ويلمّح ابن الأثير في بعض الأحيان إلى شجاعة صلاح الدين عندما تعرض للاغتيال على يد الباطنية أثناء حصار قلعة إعزاز الحصينة إلا أنه واصل حصارها حتى أخذها.

حاصر صلاح الدين حلب مرتين وهوجم من طرف الحشاشين في كليهما وهزم فيهما جيوش الموصل، والظاهر أن ابن الأثير قد اعتمد على العماد ولكنّه أبرز الروايات على نوع ما في التفاصيل، وهذا ما يذهب به إلى حديث غير معقول، حيث قال أنه في المعركة الثانية لم يقتل سوى رجل واحد من الجيشين [62].

يشير ابن الأثير إلى إنجازات صلاح الدين في مجال التعليم وتحصين المدن[63] في كل من مصر وبلاد الشام، وإن كانت في عمومها ضئيلة في مقابل حديثه عن نشاطه العسكري.

يقدم لنا ابن الأثير صورة سيئة عن صلاح الدين عندما تجاهل العهود حين وعد ابن المقدم بتسليمه بعلبك ولكنّه نكث وسلمها لأخيه تورنشاه [64]، وكأن ابن الأثير كان يتصيّد العثرات لصلاح الدين فلم يتغاض عن أخطائه بل يتعمّد في بعض المواضع إلصاق التهم به، والإساءة لشخصه.

في بلاد اليمن قدم نائب شمس الدولة التورنشاه المبارك بن منقذ الكناني إلى دمشق حاملا معه أموال اليمن، ويقول ابن الأثير هنا أن صلاح الدين لم يعارضه في أخذ أموال الرعية [65].

أخذا بمشورة كوكبوري وناصر الدين بن أسد الدين شيركوه حاصر صلاح الدين الموصل وبذل له ناصر الدين مالا كثيرا ليوليه الموصل عند فتحها، وأمر بتنفيذ هذا الأمر لهوى في نفسه وللأموال التي بذلها ناصر الدين، ولما امتنعت الموصل عليه بقي طامعا في الأموال [66]. يصور ابن الأثير هنا أن صلاح الدين كان محبا للمال مع أنه السلطان الذي يتوفر في يده ما لا يتوفر لدى غيره، وعظم ابن الأثير من أمر الموصل ووصفها بأنها بلد لا يرام [67].

علق ابن الأثير على تسليم عماد الدين زنكي صلاح الدين مدينة حلب يقوله: " وباعها بأوكس الأثمان أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضا عنها قرى ومزارع " ثم نقل رأي أهل حلب الذين أحضروا أجانة ماء ووصفوا عماد الدين بقولهم أنت لا يصلح لك الملك وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب" [68] فلم يرض ابن الأثير بهذا التسليم، ممّا يفسر لنا الكره الذي كان يكنّه ابن الأثير لصلاح الدين.

لقد كرس عماد الدين لهذه الحادثة أحد الفصول الأشد صقلا في كتاب" البرق الشامي"، ولا مجال للشك في أن هذا يؤلف المصدر لرواية ابن الأثير الذي عمد إلى إغفال نجاح صلاح الدين، وتفسيره لنصره غير المتوقع بأن نحى باللوم بصورة واهية نوعا ما على جشع الحاكم،

بحيث يتعارض قوله مباشرة مع عبارات عماد الدين الصريحة، وأراد ابن الأثير من وراء كل هذا التقليل من شأن نجاح صلاح الدين في الاستيلاء على حلب [69].

يذهب ابن الأثير إلى أن السبب في إيفاد نساء الأسرة الزنكية لصلاح الدين عند حصار الموصل لم يكن بدافع أي ضعف أو عجز في الدفاع عن الموصل، بل أرسلنّ رغبة من صاحب الموصل في الحيلولة دون وقوع الحرب، فيما يؤكد عماد الدين الكاتب أن صلاح الدين استجابة منه لندائهن، ورغم أنه عاجز عن منح كل الأشياء التي طالبن بها، وافق على وساطة عماد الدين زنكي في سنجار، وتمت عن طريق هذه الوساطة تسوية النزاع نهائيا.

لقد كان كل من عماد الدين وابن الأثير في الموصل عندما وقعت هذه الأحداث، لكن تنازع الأدلة يبدو مطلقا، ولا سبيل إلا القول أن رواية عماد الدين هي الرواية الأكثر والأشد تماسكا، ومع الظروف، بينما قام ابن الأثير بتحريفها لكي يظهر صلاح الدين في أسوء ضوء ممكن، وبصورة واهية في الأحرى للتقليل من شأن عمله على هذا الجانب من التطرف [70].

بمرض صلاح الدين في حصاره للموصل طمع ناصر الدين ابن عمه في دمشق لكن سرعان ما توفي، وقيل أن السبب في ذلك هو إكثاره من الخمر، أو أن صلاح الدين وضع له سما، وهو الراجح عند ابن الأثير، وأخذ صلاح الدين تركة ابن عمه، أما العماد الأصفهاني فقد أكد إحصاء ممتلكاته وتقسيمها بين الورثة، فالسلطان لم يلق عليها نظرة سريعة، بل قام بتقسيمها كلها إلى الورثة الشرعيين [71].

أما ابن الأثير فقد بدأ روايته للحادثة بالحديث عن مؤامرة خطط لها ناصر الدين بالتعاون مع بعض قوات دمشق خلال مرض صلاح الدين، ثم أعقبها موته المفاجئ، ويسوق ابن الأثير الحادثة قائلا: يقولون لكن على ذمة الراوي الذي لم يذكره: أن صلاح الدين حرض رجلا يدعى الناصح بن العميد من دمشق وأعطاه كأسا مسمومة، ثم قدم صلاح الدين إلى حمص وجرد الممتلكات، وأخذ معظمها لنفسه تاركا سقط المتاع فقط، وما تجدر الإشارة إليه أن هذه هي المرة الوحيدة التي يغتنم فيها ابن الأثير فرصة لاتهام صلاح الدين بممارسة الاغتيال، والاستيلاء على أملاك الغير،

تلك الممارسة التي تظهر بشكل بارز في حوليات العصر السياسية، وحاول ابن الأثير هنا إظهار صلاح الدين بأنه ليس أفضل من أي أمير آخر في زمانه [72].

ويقال أن شيركوه حضر عند صلاح الدين بعد وفاة أبيه بسنة فقال له إلى أين بلغت من القرآن [73]، فقال له إلى قوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [74] فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه، لأنه ذكر آية بيّن من خلالها أخذ صلاح الدين لتركة أبيه حسب رواية ابن الأثير.

أشير على صلاح الدين بتولية أولاده في حياته فأخذ حلب من أخيه وأخرج تقي الدين من مصر، ثم أعطى حرّان والرها وميافارقين لأخيه العادل ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لأولاده فلو لم يفعل ما فعل لما أراد الله نقل الملك عن أولاده، فصلاح الدين استعمل أقاربه على البلاد التي تحت يده، وقدم أولاده لأنه كان يعمل من أجلهم [75] وهذا اتهام آخر من ابن الأثير لصلاح الدين.

حاصر صلاح الدين صور ثم عاد عنها لحصانتها وكثرة الفرنج فيها، ولم يكن لأحد ذنب فيها غير صلاح الدين في اعتقاد ابن الأثير، لأنه جهّز إليها الفرنج بعدما أعطاهم الأمان وأرسلهم إلى صور بأموالهم فتجمع فيها من سلم منهم وكثر عددهم ذلك لأنه ملك وبسرعة أكثر بلادهم بشرط تأمينهم على أنفسهم وأموالهم [76] وهذه سياسة من صلاح الدين فسّرها ابن الأثير على أساس أنها سوء تدبير من جانبه.

اعتمد ابن الأثير حول هذه الأحداث على كتاب الفتح للعماد، وعندما عرض عدم متابعة صلاح الدين لحصار صور عمد إلى قلب الفقرات الواردة في كتاب الفتح، والمتصلة بمشاورات صلاح الدين مع الأمراء وانسحابه، وتسفر النتيجة عن تصوير صلاح الدين وكأنه قد اتخذ القرار بالتخلي عن الحصار قبل تمرد الأمراء[77]، فيصبح إذّاك عملهم برفض القتال وسحب رجالهم ضربا من عدم الواقعية، بل يمضي إلى الأنحاء على صلاح الدين باللوم الشديد على عمل تقع المسؤولية إلى حد كبير على عاتق إخوان ابن الأثير من عساكر الموصل [78].

قلّل ابن الأثير من شأن صلاح الدين عندما أراد وداع معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم، فلما أراد صلاح الدين الركوب عضده معز الدين هذا وأركبه، وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين صاحب الموصل، يقول ابن الأثير: فعجبت من ذلك، وقلت ما تبالي يا ابن أيوب أية موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي [79] في إشارة منه إلى أفضليتهما على صلاح الدين.

من خلال عرضنا لمجمل ما جاء في كتاب الكامل حول صلاح الدين تبيّن لنا مدى انحياز ابن الأثير للزنكيين، لكونه من جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، ومن أسرة ثرية عرفت بقربها من السلطة الحاكمة، فأبوه كان والي جزيرة ابن عمر لقطب الدين، فعاش بذلك ابن الأثير في كنف الزنكيين، وقد بيّنا العلاقة التي كانت بين عائلته وحكام آل زنكي (أصحاب الموصل).

تعرض ابن الأثير للأحداث المتعلقة بالناصر صلاح الدين منذ سنة (1166/562) إلى غاية سنة (1193/589) ووجدنا مواضع كثيرة قد بيّناها، انحياز ابن الأثير الظاهر الجلي لآل زنكي على حساب صلاح الدين، بحكم العداء والتنافس الذي كان موجودا بينه وبين حكام الموصل، ومحاولة صلاح الدين ضم الموصل إلى مماليكه لاستكمال توحيد الجبهة الإسلامية، وألف ابن الأثير كتابا خاصا عن أسرة آل زنكي سماه التاريخ "الباهر في الدولة الأتابكية"، وقد أهداه إلى الأمير القاهر مسعود الذي ولي الموصل سنة (1210/607) اعترافا بفضل أسلافه على أسرة ابن الأثير، وتوجيها له حتى يتخذ من سلفه مثلا يحتذى في حسن السيرة، وعدالة الحكم، ويشتمل هذا الكتاب على المدة الواقعة بين سنتي (477-607/1084-1210)، أي منذ ولادة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل ووالد عماد الدين زنكي، حتى ولاية القاهر مسعود الذي أهدي إليه الكتاب [80].

أما بالنسبة لمواجهات صلاح الدين مع الفرنج[81] فقد ذكرها ابن الأثير بالتفصيل منذ سنة (1187/583) ومعركة حطين وفتح بيت المقدس، حتى الهدنة التي عقدت بين السلطان الناصر والفرنج.

وفيما يخص كتاب الكامل فإن ابن الأثير بدأ في تأليفه ولكنه توقف عن ذلك مدة، ثم شرع في إتمامه نزولا عند طاعة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ المتوفى سنة (1258/657)، وبهذا يكون ابن الأثير من كتاب البلاط، بلاط آل زنكي، وبسبب هذا وجدنا مؤاخذاته لصلاح الدين، وميله لأصحاب الموصل، وعلى الرغم من إشادة ابن الأثير بفضائل صلاح الدين، وحسن صنيعه وجهاده، إلا أن كرهه له جاء باديا وظاهرا في كتاب الكامل، خاصة في المواضيع التي تحدثت عن مواجهة صلاح الدين مع أصحاب الموصل، وكذا مواضع أخرى تعلقت بجهاده للفرنج والخلافات التي نشبت بينه وبين بعض الأمراء والحكام المسلمين، وهو دون أدنى ريب مذنب في تشويه صورة صلاح الدين، لحساب الأسرة الزنكية، ولقد خالف ابن الأثير في كثير من الرؤى والتفسيرات التي ذهب إليها، مؤلفات معاصرة له خاصة كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب في جزئيه الباقيين الثالث والخامس، وما نقله أبو شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين من خلال المنتخبات التي جمعها في مؤلفه والتي شكلت مادة متنوعة لمؤرخين يعدّ العماد الكاتب واحدا منهم، ومن بين المصادر الأكثر اعتمادا عند أبي شامة.

الهوامش:

(1): نشر شتلنس كتاب النوادر السلطانية سنة 1732 ثم سنة 1755، وطبعت نشرته في ألمانيا سنة 1790، ونشره أيضا (de slan) دو سلان مع ترجمة فرنسية، وطبع الكتاب بالقاهرة سنة 1957/1377، ثم قام جمال الدين الشيال، بتحقيقه وطبع سنة 1964 بالدار المصرية للتأليف والترجمة، **انظر**: بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، القاهرة، دار المعارف، 12/6-13.

(2): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي – دراسات في التاريخ الإسلامي**- بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 1996، ص 69- 70.

(3): نفسه، ص 70.

(4): شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق، بشار عوّاد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405، 354/21.

(5): **قال ابن خلكان في الوفيات**: " والجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون أنها جزيرة ابن عمر منسوبة إلى يوسف ابن عمر الثقفي أمير العراقين، ويقال أن رجلا من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر، فأضيفت إليه، وفي بعض التواريخ هي جزيرة ابني عمر أوس وكامل، وفي تاريخ ابن المستوفي في

ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد أخي أبي الحسن المذكور أنه من جزيرة أوس وكامل ابني عمر ابن أوس التغلبي".

(6): الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ص 354.

(7): المنذري، **التكملة بوفيات النقلة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1407، 349/3.

(8): توفي ابن السمعاني، سنة (1166/562).

(9): ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، مج3- 137/5.

(10): قال القاضي سعد الدين الحارثي: توفي عز الدين في الخامس والعشرين من شعبان، وقال أبو العباس أحمد بن الجوهري: مات في رمضان من السنة، وقال المنذري وابن خلكان، وأبي المظفر سبط ابن الجوزي، وابن الساعي، وابن الظاهري، مات في شعبان، ولم يعينوا اليوم وقد عينه الحارثي، ويقول الحافظ الذهبي: " قد رأيت أنا خطه تصحيحا على طبقة سماع تاريخها من نصف شعبان ". **انظر**: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، المصدر السابق، 355/21- 356.

(1): ابن الأثير، **الكامل**، 16/10.

(12): جماعة من الفرسان الصليبيين تأسست في سنة (1118/512) يطلق عليها اسم فرسان المعبد، وكان لها دور كبير في الحروب الصليبية انظر: محمد سهيل طقوس، **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة**، بيروت، 1999، ص 24.

(13): إحدى الفئات الدينية العسكرية ويعرفون أيضا بفرسان القديس يوحنا وهم من الفرسان الصليبيين، وقد تأسست جمعيتهم سنة (1099/492) بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وكان هدفها الاول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم، ولكنها تطورت إلى فئة عسكرية مقاتلة وقد أدت دورا كبيرا في تاريخ الحروب الصليبية، انظر: محمد سهيل طقوس، **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة**، ص 24.

(14): ابن الأثير، **الكامل**، ص 27.

(15): نفسه، 48/10.

(16): نفسه، ص 54.

(17): نفسه، ص55.

(18): ابن الأثير، **الكامل**، ص63.

(19): نفسه، 142/9.

(20): نفسه، 83/10.

(21): ، ص121.

(22): نفسه، 9/1.

(23): نفسه، 6/1.

(24): نظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص9.

(25): إن أغلب روايات ابن الأثير يكاد يكون مصدرها الأوّل مؤلف عماد الدين الأصفهاني" البرق الشامي"، فالروايات مثلا الموجزة للأحداث في سوريّة والتي تشغل الفصل كلّه في تلك السنة (هجوم الفرنجة على حماة، ثورة ابن المقدم وحصار بعبك، وغيرها عن الهجمات الصليبية)، كلّها تنسخ مادة روايات عماد الدين، غير أنّه ممّا يقبل الجدل أنّها قد تكون مستقاة من رسائل رسميّة ومصادر أخرى، والألفاظ العامة بالذات التي يستخدمها ابن الأثير لا تسمح بأي برهان على وجود اعتماد مباشر. انظر: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 77.

(26): ابن الأثير، **الكامل**، ص 10.

(27): يسرى عبد الغني عبد الله، **معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر**، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 36- 37.

(28): يسرى عبد الغني عبد الله، **معجم المؤرخين المسلمين**، ص 36.

(29): ابن الأثير، **الكامل**، 9/1.

(30): فرانز روزينتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، ت، صالح أحمد العلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1403- 1983، ص 203.

(31): بالنسبة لتاريخ بلاد الشام خلال السنين (573- 574 هـ)، لا توجد واقعة مذكورة في تاريخ ابن الأثير دون أن يذكرها كتاب عماد الدين، والواقع أنّ الشيء الوحيد الذي يحول بين التأكيد الصريح بأنّ كلّ واحدة من هذه الروايات كانت مستقاة من البرق هو العادة التي درج عليها ابن الأثير بثبات في إعادة صياغة محتوى الفقرات التي يستخدمها بلغته الخاصة، ممّا يؤدي إلى استبعاد الحجّة النهائية عن التطابق في التعبير اللغوي. انظر على سبيل المثال: عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، ج 3، الذي يشتمل على كامل روايات السنتين.

(32): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام**، ص 58.

(33): ابن الأثير، **الكامل**، 87/10- 88.

(34): جمال فوزي، ص 58.

(35): ابن الأثير، **الكامل**، 354/9.

(36): نفسه، 354/9.

(37): جمال فوزي، ص 61.

(38): نظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، ص 9.

(39): هاملتون، **صلاح الدين**، ص 75، 80.

(40): ابن الأثير، **الكامل**، 1/10-11.

(41): نفسه، 1/9.

(42): نفسه، ص 155.

(43): إنّ ابن الأثير فيما يتعلق بالسنوات الباكرة لصلاح الدين في مصر وقبل وفاة نور الدين غالبا ما نسخ في كتابه الكامل المقاطع الوثيقة الصلة من كتابه الأسبق عن تاريخ أتابكة الموصل (والعنوان الأصلي لهذا الكتاب هو التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية)، المعرّب، هذه الأقسام يمكن التسليم بأنها مستقلة عن أعمال عماد الدين، ومن جهة ثانية فإن عماد الدين كان عند هذا الحين واحدا من كتاب نور الدين بدمشق، وكان بالطبع واسع الإطلاع على نشاطات صلاح الدين، فإعجابه بنور الدين كان يضاهي إعجاب ابن الأثير صدقا وإخلاصا، وأقواله عند هذه الفترة هي أقلّ ما يمكن أن تكون عرضة لتهمة التحيز المفرط = إلى جانب صلاح الدين لذا فالأكثر مثارا للدهشة هو أن تلقى روايات العماد إهمالا جامعا من جانب المؤرخين المحدثين رغم اختلاف عماد الدين عن ابن الأثير في نقاط عديدة، وقد قام ابن الأثير بإدخال تعديلات لا يستهان بأمرها من عماد الدين في تاريخه لهذه السنوات بعد قيامه بتكييفها وفقا لصورته الخيالية والفنيّة بالألوان عن صلاح الدين في طموحه الذي أحبط خطط نور الدين للحرب المقدّسة. **انظر**: هاملتون، **صلاح الدين**، ص 84، 85..

(44): وقف أهل دمياط لمّا هوجموا من طرف الصليبيين على قلب رجل واحد وإذا دلّ ذلك على شيء فإنما يدل بصورة جليّة وواضحة على أنّ أهل مصر رحبوا بحكم صلاح الدين السنيّ نابذين وراء ظهورهم عهد الإسماعليين بكلّ ملامحه. انظر: عثمان عبد الحميد عشري، **الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية** (491/691-1097/1290) الإسكندرية: المكتبة التاريخية، 1983، ص 158-159.

(45): لم يكن صلاح الدين يطمح منذ توليه الوزارة بمصر إلا في الجهاد في سبيل الله والاستحواذ على سوريا التي كانت تشكل جبهة إسلامية أشد اتحادا وقوة قبل الشروع في الحرب الحقيقية ضد الافرنجة، لكن بعض الكتابات كانت مغايرة وربما فيها شيء من العداء لصلاح الدين كروايات ابن الأثير في كتابه محل الدراسة. Françoise Micheau، *op. cit.*، p. 57

(46): روايات ابن الأثير عن الحملتين اللتين سيّرهما صلاح الدين ضد حلب في العامين (570/1175-571/1176)، تقدم عددا من الدلائل الطريفة، فمن البادي أنّ أخبار الحملتين (واللتين انهزمت فيهما جيوش الموصل مرتين)، لم ترو في التاريخ الباهر للدولة الأتابكية. لقد هوجم صلاح الدين من جانب الحشاشين في كل منهما، ورواية ابن الأثير عن هاذين الهجومين هي منسوخة بشكل يمكن تمييزه رغم إعادة السبك اللفظي عن روايات عماد الدين. انظر: ابو شامة، **الروضتين**، ج1، ق2، ص 613.لكنّه من المتوقع فحسب أنّ ظروف المعركتين اللتين هزم فيهما صلاح الدين قوات الموصل أبرزها ابن الأثير على نحو مختلف نوعا ما في التفاصيل. انظر: هاملتون، **صلاح الدين**، ص 85، 86.

(47): تشويهات ابن الأثير تبدو غالبا وكأنّها ناشئة عن فقرات وعبارات من عماد الدين بواسطة الدمج أو التفسير، ويمكن العثور على مثال من ذلك في قوله الذي سبقت الإشارة إليه، حيث ينسب استسلام حلب إلى جشع أميرها عماد الدين زنكي فابن الأثير يعبّر عن هذا كعادته بتعابير صوريّة لجدال قام بين الأمير وقواته. لكن أساس الحادثة يبدو أنّه ما قاله العماد الكاتب، في أنّ صاحب الموصل كان يدفع أمولا طائلة للجيش، وإذا امتد الحصار خسر كلّ شيئ ولهذا نزل عن حلب لصلاح الدين. طبعا إنّ مثالا مفردا لا يشكّل برهانا، وقد يكون من الصعب اكتشاف حالات أخرى لأنّ معظم أقسام كتاب البرق مفقودة. انظر: هاملتون، **صلاح الدين**، ص 91.

(48): ابن الأثير، **الكامل**، 9/409- 410.

(49): لقد قام صلاح الدين باقتسام تركة شيركوه ابن الأثير، **الكامل**، ص 416 و465-467.

(50): نفسه، 10/131- 135.

(51): هاملتون، **صلاح الدين**، ص 83.

(52): ابن الأثير، **الكامل**، 9/91- 92.

(53): نفسه، ص 340-343.

(54): نفسه، ص 344- 345.

(55): نفسه، 9/364- 365.

(56): ولد سنة (1130/524) يعده بعض المؤرخين الأوربيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى بحيث توفرت له من ادوات الكتابة ما جعلته يحتل هذه المرتبة فإلى جانب إتقانه للغة اللاتينية الفرنسية واليونانية والمامه بالعربية فقد شغل مناصب منها إشرافه على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس، وسفيرا للملك أموري في بلاط إمبراطور بيزنطة، ثم أصبح رئيس أساقفة صور، انظر: وليم الصوري، **الحروب الصليبية** (1184/1094)، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، 1198، 1/5- 6.

(57): هاملتون، **صلاح الدين**، ص 92.

(58): ابن الأثير، **الكامل**، 9/398.

(59): نفسه، ص 398.

(60): نفسه، 9/436- 437.

(61): هنا يشارك عماد الدين بالواقع، وإن تكن مشاركته معتدلة نسبيّا، في النزعة الشائعة لدى معظم مؤرخي القرون الوسطى بتضخيم أرقام الجيوش المعادية، لكن في هذه الحالة يجوز عذر العماد جزئيا، فهو لم يؤكد بأن جيش سيف الدين كان مؤلفا من 20000، وقدم ابن الأثير هذا الدليل ردا منه لاعتبار صاحب الموصل سيف الدين، وتقليلا من هيبة صلاح الدين، ونقض قول العماد الكاتب بدليل استناده لوثيقة رسمية لم يذكر نصها في مؤلفه الكامل كما ورد **انظر**: هاملتون، **صلاح الدين**، ص 86.

(62): هاملتون، **صلاح الدين**، ص 86.

(63): كلف صلاح الدين وزيره قراقوش ببناء القلعة في مصر ليتمكن من التحكم في البلاد. هذا الوزير قام بخفض الميزانية المخصصة للبناء بهدم الأهرام الصغرى في الجيزة، وباستعمال ثالث الأهرام الكبرى أي هرم (ميكيرنبوس) كمقلع، وباستخدام كتل الحجارة الفخمة المنحوتة المأخوذة من قبور الفراعنة أسسا لقلعة صلاح الدين. انظر: البيرشاندور، **صلاح الدين الايوبي البطل الأنقى في الإسلام**، ترجمة، سعيد أبو الحسن، (ت) نديم مرعشلي، دمشق: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1993، ص 100.

(64): ابن الأثير، **الكامل**، 435/9- 436.

(65): نفسه، ص 452-453

(66): وفي هذا مبالغة من ابن الأثير الذي اتهم صلاح الدين بالطمع في الأموال التي بين يدي ابن عمه ناصر الدين، وكأن صلاح الدين همه في امتلاك الموصل هو المال، وليس توحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة الإفرنج كما ذهب إليه سائر المؤرخين المعاصرين للسلطان صلاح الدين.

(67): ابن الأثير، **الكامل**، 462/9- 463- 464- 465.

(68): نفسه، 472/9- 473- 474.

(69): هاملتون، **صلاح الدين**، ص 81.

(70): ابن الأثير، **الكامل**، ص 86.

(71): نفسه، ص 87- 88.

(72): نفسه، ص 91.

(73): نفسه، 10/10-11.

(74): الآية (09) من سورة النساء.

(75): ابن الأثير، **الكامل**، 16/10.

(76): نفسه، 39/10- 40.

(77): هذا التمرد مردّه إلى نظام الإقطاع العسكري، وهو نظام اتبعه السلاجقة والأيوبيون ومن بعدهم المماليك، فيقطع السلطان أحد أفراد أسرته وكبار رجال دولته منطقة من بلاده يستقيل بشؤونها وعليه تهيئة الجند، ودفع عطاءاتهم، ويرجع إلى السلطان في كل أمر من أمور إقطاعه، ويقوم هذا بدوره بإقطاع الإقطاعات لكبار رجالاته، ويرجعون إليه مباشرة ويعملون على تأمين الجيش، وهو نظام له عيوبه، فأثناء حصار صلاح الدين لصور وبعدها عكا فقد سيطرته على الإقطاعيات أثناء هذا الحصار لمّا أخذ أصحاب الإقطاعيات من الأمراء وكبار الجند بالتأفف والاستياء بطول بقائهم مرابطين على عكا، فاضطر تحت ضغط الأمراء وكبار الجند إلى أن يأذن للجند بالعودة إلى بلادهم.انظر: أبو شامة، **عيون الروضتين في أخبار الدولتين** (النوريّة والصلاحيّة)، ق1، تحقيق أحمد البسيومي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991، ص 08.

(78): هاملتون، **صلاح الدين**، ص 88.

(79): ابن الأثير، **الكامل**، 104/10.

(80): أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين**، ج1، ق1، ص 29.

(81): كان صلاح الدين مدركا لأهمية الأموال في حملته ضد الصليبيين فقد استخدم كافة الوسائل لتحقيق هدفه كالرشوة والهدايا مع بعض منهم للحصول على معلومات من ناحية، واحداث الوقيعة فيما بينهم من ناحية أخرى. انظر: حسن عبد الوهاب حسن، **مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية**، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 1997، ص 128.